ملامح التشاؤم في شعر أبي‌العلاء المعري و أبي‌القاسم الشابي (قراءة موازنة)

The profiles of pessimism in the poetry of Abu Ala Al-maarri and Abu Al-Qasim Al-shabbi

د. أحمد جابري نصر
(دكتوراه في اللغة العربية و آدابها، و أستاذ محاضر)
د. رسول بلاوي
(أستاذ مشارك في جامعة خليج فارس، بوشهر - ايران)

r.ballawy@pgu.ac.ir

تاريخ الإيداع: 2019/06/23 تاريخ القبول: 2019/12/10

ملخص المقال:

يشترك أبو العلاء المعري (449هـ) و أبو القاسم الشابي (1934م) في قصائدهما بوجهات نظر متشابهة في حديثهم عن الحياة والناس والدين والسياسة. وللكشف عن أسباب هذا التشابه في تجربتين شعريتين بينهما قرون من الزمن، يمكننا أن نفتّش عن عوامل نفسية واجتماعية ودينية كانت تحيط بهما. كلاهما كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب وقد وُلدا في أسرة دينية، وفي معظم الحالات كانت نظرتهم إلى الحياة والعالم والناس مستوحاة من الدين. كان وضعهما الاجتماعي مشابهاً أيضاً بسبب ضعف الحكومات وتفشي الفساد ممّا خلف وجهة نظر مماثلة تجاه الحكام وفسادهم. ومن جانب، واجه الشاعران أمراض خطيرة في حياتهم أدّت إلى فقد البصر في واحد، والموت في الآخر وهذا الجانب ترك بصمة واضحة وجلية في نتاجاتهم الشعرية، ولو كان الرؤية التشاؤمية أكثر بروزاً في قصائد أبي العلاء. بالإضافة إلى هذه العوامل، يمكن البحث عن عوامل أخرى في شعر الشابي وهي إخلاصه للمدرسة الأدبية الرومانسية التي أثّرت في نظرته إلى المجتمع والحياة والتفسير وأسلوبه الشعري.

الكلمات المفتاحية: أبو العلاء المعري، أبو القاسم الشابي، التشاؤم، الشعر السياسي.

Abstract

Abu Alaa Al-Maarri and Abu al-Qhasim Al-Shabi share a very similar philosophic view to some of important philosophic matters in their poems including life, people, religion and politics. To interpret the similarity

between two poets distancing some centuries it can be said that mental, social, religious, traditional and technical factors are involved. They both knew the Quran by heart and were born in religious families so in most of cases their view to religion, world and people was affected by religion. Their social status was also similar due to weakness of governments and dissemination of corruption which created a similar view in them to rulers and corruption. In mental perspective, they encountered with serious diseases led to blindness in one and death in another which affected on their poems; however this aspect is more salient in Abu Alaa' poems. In addition to these factors, other factors can be looked for in Al-shabi's poem which is his devotion to Romanism literary school which affected on both his view to society and life and interpretation and poem style.

Keywords: Abu Alaa Al-Maarri, Abu al-Qhasim Al-Shabi, pessimism, political poetry.

المقدمة

الكثير من الشعراء على مر العصور اصطبغ شعرهم بصبغة تشاؤمية نظرا لظروف حياتهم المعيشية و الأوضاع الاجتماعية المحيطة بهم. و من هنا تظهر ظاهرة التشاؤم في نتاجهم بأشكال مختلفة كالاحباط والشعور بالخيبة والعجز. و من الشعراء الذين عُرِفوا بنزعته التشاؤمية هو أبو العلاء المعري نظرا لظروفه فهو «منذ حداثته يسيء الظن بالناس، لا ينظر إليهم نظرة الرضى و الطمأنينة، و يميل إلى الانقباض عنهم، و حُبّبت إليه العزلة»[1]. و لعل من أبرز أسباب تشاؤمه بالحياة موت والديه؛ فقد أصبحت حياته جراء هذه الظروف حياة شقاء و معاناة و صراع بين ثنائية الحياة و الموت.

والشاعر التونسي الحديث أبو القاسم الشابي أيضا تعرّض إلى آلام و معاناة في حياته حالت دون تحقّق طموحاته التي كان يسعى إليها فضلا عن الظروف الاجتماعية و السياسية في المجتمع، و انتمائه للرومانسية التي كانت تميل للنزعة التشاؤمية. إنّ من يقرأ شعر أبى القاسم الشابي متمعّناً في معانيه يجدُ أنّه تأثّر بأبى العلاء المعري على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين عصريهما أي العصر العباسيّ و العصر الحديث و ما يمتّ إلى هذا الفارق من اختلاف فى الثقافة و الفكر و المعرفة و الذوق. إنّ نظرة أبى القاسم الشابي المتشائمة إلى الناس و الحياة و الدين و السياسة تدلّ على تأثّره بأبى العلاء المعري كما تأثّر غيره من شعراء أبولو بشعراء آخرين من العصر الأمويّ و العباسيّ. و من خلال دراسة هذا التأثّر و أسبابه يمكننا الكشف عن نفسية الشاعرين و من ثمّ العصرين.

يناقش هذا المقال من خلال اعتماده على المنهج الوصفي – التحليلي، ملامح التشاؤم في شعر أبي‌العلاء المعري و أبي‌القاسم الشابي و يقارن بين تفكيرهما حول بعض القضايا التى ناقشها الفكر الإنسانى و هى المجتمع، و الدين، و الحياة، و السياسة. كما تحاول أن تجيب عن سرّ المشابهة بين رؤية هذين الشاعرين لهذه القضايا على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين عصريهما و عن جذورها الايدلوجية و البيئية و الاجتماعية و النفسية و غير ذلك.

أسئلة البحث:

في هذه الدراسة نحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما هي المفاهيم المشتركة في شعر أبي العلاء المعري وأبي القاسم الشابي؟
- ما مدى تأثّر أبي القاسم الشابي في شعره برؤية أبي العلاء المعريّ التشاؤمية؟
- ما هي الأسباب التي جعلت هذين الشاعرين يميلان إلى الرؤية التشاؤمية في شعرهم؟

النظرة المتشائمة إلى الناس

إنّ أبا العلاء المعري و أبا القاسم الشابي ينظران إلى الناس باحتقار و يذمّانِهم لأنّ أغلبهم لايلتزمون بمبادئ أخلاقية و دينية و إنما يتقلّبون مع مصالحهم. إنّهما عندما يريان أنّ الناس يتجاهلون أهمّ قضاياهم المصيرية يتألمان و يحتقرانهم و لهذا نرى مثلاً أنّ أبا العلاء يترك الناس و يعتزلهم و يشجع الآخرين على مثل هذا[2]. فيقول:

عداوةُ الحقُ اعفى من صداقتِهم فأبعد عن الناسِ تأمن شرّةَ الناس
قد آنسوني بإيحاشي إذا بَعُدوا و أوحشوني في قربٍ بإيناسي[3]

و في البيت الآتي يقول:

إن مازتِ الناسَ اخلاقٌ يعاش بها فإنهم عند سوءِ الطبعِ اسواءُ[4]

إنها غايةُ التشاؤم أن ترى الناس رجساً و تحكم عليهم بسوءِ الطبع و تلتزمُ بالإبتعاد عنهم لصيانة نفسِك من عَدواهُم التى تَسري لمن يعاشرهم. و يا له من جزم فى هذا المسار بأن تبعد عن الناس و ترى أُنسَك فى هذا، و أن تقترب إليهم و تراه ايحاشا سيضرّك لما تتوقّعه من مثل هؤلاء الناس. و كذلك أن تظن الناس سواء فى سوء الطباع كأنها فطرتهم التى فُطِروا عليها.

فظن بسائر الاخوان شرّا ولا تأمن على سرّ فوادا ....
تجنبتُ الانامَ فلا أُواخي وزدتُ عن العدو فما أعادى[5]

كذلك يقول:

أيُوجَدُ في الورى نفرٌ طهارى أم الأقوامُ كلُّهُمُ رجوسُ[6]

إنّ بغضَ المعري للناس لاينحصر في سوء ظنه هذا ولا بعزلته عنهم بل إنّه يتجاوزُ هذا إلى أن يرى أنَّهُ الأجدرُ بالإنسان أن لايتزوجَ أو أن يقترن بامراة عقيم لأنّ النسلَ جنايةٌ و الأحرى

بالانسان أن يتخلّى عن الزواج حتى لا يسلم أولاده إلى البلاء وإن تزوّجَ فالأحرى به أن لا ينجب أطفالا.

نصحتُك لا تنكح فإن خفتَ مأثماً فأعرس و لا تنسل فذلك احزمُ[7]

نجدُ هذه الأفكار نفسها عند أبي القاسم الشابي إن لم نقل أنّ الشابي كان أكثر تشاؤماً و أشدّ تصلّباً في سوء ظنه بالناس إذ يقول مثلاً:

كان ظنّي أنّ النفوسَ كبارٌ فوجدتُ النفوسَ شيئاً حقيرا

لوّثته الحياةُ ثم استمرت تبذرُ العالمَ العريضَ شرورا [8]

إنّه يفضّلُ أن يفرّ من المجتمع و الناس إلى الغابة، تلك الغابة التي ذكرها في شعره أكثر من سائر الرومانسيينَ و الهروب إلى أحضانها خوفا من الناس و مجتمعاتهم القذرة. إنها هجرةٌ من الدنس إلى الطهارة. إنها هجرة تُشبهُ فرارَ أبي العلاء المعري من الناس و عدم الإقتراب منهم خشيةَ أن يمسّهُ دنسهم. في الواقع أن دعوة الرومانسية قد تختلف في اللفظ مع ما كان يدعو إليه أبو العلاء لكنّها في الفحوى لا تحمل فى طياتها شيئا غير هذا إذ كان الرومانسيون يفّرون من المجتمع لانغماسه بغير ما يجب أن تسعى إليه بشرية البشر.

يا لها من معيشةٍ في صميم الغابِ تُضحى بين الطيور و تُمسى

يا لها من معيشةٍ لم تُدنّسها نفوسُ الورى بخبثٍ ورجسِ

يا لها من معيشةٍ هي في الكونِ حياةٌ غريبةٌ ذاتُ قدسِ[9]

إنّ الشابي لايستطيعُ أن يتخلّى عن هذه الرؤية حتى في غزله التي يتطلب من الشاعر أن يتكلّمَ عن الحب والجمال وما شاكلَهُما من الأحاسيس، لكنّ نفس الشابي الحسّاسة لاتستطيع أن تنسى ما عهدته من لؤم البشر فيقول في غزله مثلا:

فافهمي الناس إنما الناسَ مُفسدٌ في الوجود غير رشيدِ

والسعيدُ السعيدُ من عاش كالليلِ غريبا في أهلِ هذا الوجودِ

ودعهُم يَحيَونَ في ظلمةِ الإثمِ وعيشي في طُهرِك المحمودِ [10]

ويقول أيضا في قصيدته «أبناء الشيطان» ما يفوقُ كلّ ما نقلناهُ عن المعري فيشكو الناسَ و يزدريهم و يصرّح بجهلهم و شقائهم و قلّة فهمهم و سوء أدبهم.

أيّ ناسٍ هذا الورى ما أرى إلّا برايا، شقية، مجنونَه [11]

وكذلك يقول :

إنّي أرى فأرى جموعاً جمةً لكنّها تحيا بلا ألبابِ[12]

إنّه ينوح و يتألّمُ من أفعال الناسِ و من عدم إكتراثهم و جهلهم، و حسدهم و قلة ورعهم و عدم انصافهم. فهو يرى إنّهم لا يَحترمونَ إلّا من يفرض نفسَهُ عليهم و يتكبّر عليهم و

يحتقرون من يحترمهم. إنّ الشابي أيضاً يتكلّمُ هكذا عن الناس لأنهم كانوا غافلين عن مصيرهم و عن أمورهم. إنَّهُ يُريدُ أن يهزَّ شعورهم و يريدهم أن يقاوموا المحتلَّ و أن يثوروا بوجهه و عندما لايرى أيّ صدى لكلامه بينهم ييأس و يرفع صوته بالجهر من السوء.

لا أعنّي نفسي بأحزان شعبي فهو حيٌّ يعيشُ عيشَ الجمادِ

و بحسبي من الأسى ما بنفسي من طريق مستحدثٍ وتلادِ[13]

فأبو القاسم الشابي يرفع صوته و يملأُ الدنيا تذمّرا و شكاوي ليحرك الضمير العامّ و يشجّعَهُ على الخير و الفضيلة. إلّا أنّنا لا ننكر أن يكون هذا الصوت هو صوت استياء الشاعر و صوت حيرته غير أنّ نظرة الشابي تبدو خالية من العوامل النفسية كما كان الأمر عند أبى العلاء المعري. أبوالقاسم الشابي لم يكن من أبرز الشعراء الرومانسيين العرب فقط بل كان من أكبر ناقديها و منظّريها. هناك أيضاً مؤثرات دينية لهذه النظرة فكما قلنا أنه كان يحفظ القرآن، و هناك أيضاً أسباب متأثرة بالظروف الاجتماعية لنشأة و تكوين هذه النظرة عند الشابي و هى إغفال الناس لمصيرهم و تسليمه بيد الظلمة و المستعمرين، و تنزّلهم إلى منزلة منحطة لا ترقي إلى ما يجب أن يكون عليه البشر من الكرامة.

النظرة إلى الحياة و الدهر

لقد كَثُرَ ذمُّ الحياة و الدهر في الكثير من مأثور كلام العرب نظما و نثرا و حكمة و بعض آي الذكر الحكيم و الحديث الشريف، فلا غرو أن نجد مثل هذا عند أبي العلاء و أبي القاسم إذ انهما متربّيانِ على التراث و القيم العربية و المبادئ الإسلامية. إنّ الحياة هي أكبر قضية شغلت تفكير أبي العلاء و كانت تلازمه في مراحل تفكيره نظماً و نثراً [14]. إنّنا نستطيع أن نتذكّر من خلال نظرتهما إلى الحياة، الرومانسيين المعاصرين الذين أكثروا من ذم الحياة والدهر و اسرفوا في التشاؤم و الإحساس بالغربة و اليأس و الخيبة[15]. إنّ أبا القاسم نفسه كان رومانسيّا و كان ينتسبُ إلى مدرسة أبولو[16] التي أسسها أحمد زكي أبو شادي في عام (1931م) في مصر و أصدر مجلة باسمها.

إنّ أبا العلاء المعري أيضاً يصنعُ صنعَ الرومانسيّينَ في التشكي من الدهر و ذمّ الحياة إن لم نقل أنّه يفوقهم في هذا الجانب فنراه يقول:

ذلّت لما تصنعُ أيامنا نفوسُنا، تلك الأبياتُ

تجني خمورُ الهمِّ، ما لم تكن تجني الخمور العِنبيّاتُ [17]

و كذلك يرى الدهر يعاند فيخلف الوعد ويفتك بالجميع و لايفرّق بين محسن ومسيئ وبين صالح وطالح:

يا دهرُ يا منجز ايعاده و مخلفَ المأمول من وعدِهِ[18]

وفي البيت التالي يقول أيضاً:

خسستِ يا امّنا الدنيا فأفٍ لنا بنو الخسيسة اوباشٌ أخسّاءُ[19]

و مما يؤخَذُ من مجموع ما يوجَدُ في آراء أبي العلاء حول هذا الموضوع نستطيع أن نقول أنّ ذم أبي العلاء للدنيا و الدهر ليس على غرار القديم و إنما يكاد يكون مختلفا عنه و إن كان ممتدا من جذوره. إنّ الدهر و الدنيا في شعر أبي العلاء كائنان حيّانِ يتوقان إلى الرذيلة و المكيدة. و الأيام لاتصفو و لا تستقرّ على عهد، فعلينا أن لا نثق بها فإننا أبناءُ واحد و على نفس الشاكلة فلا وفاءَ عندها إذ انها عوّدتنا على الفتك و على البلايا:

ألّا إنّما الأيامُ أبناء واحد و هوى الليالي كلها أخواتُ

فلا تطلُبَن من عند يوم و ليلهٍ خلافَ الذي مرّت به السنواتُ[20]

إنّ أبا العلاء يشكو من الدنيا و من عدم وفائها و من سوء حالها وهذه المفاهيم ليست جديدة و توجد كثيرا في الأدب العربي القديم حتى نستطيع أن نقول إنها إحدى ظواهر الشعر العربي القديم تدلّ على نظرة العرب القدامى إلى الدنيا و تقلّبها من حال إلى حال كما نرى في شعر زهير بن أبي سلمى مثلاً:

سئمت تكاليف الحياة و من يعش ثمانين حولا لا أباً لك يسأمِ[21]

كما إنّ ذم الدنيا يوجد كثيرا فى القرآن الكريم حيث يقول مثلا: «اِعْلَمُوا اَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَينَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِى الاَمْوالِ وَالاَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْث اَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِى الاخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا اِلاّمَتاعُ الْغُرُورِ»[22]. و أيضاً في كلام أولياء الله عليهم السلام فمن الطبيعي أن يكون أحد أُسُس هذه النظرة مأخوذة من النظرة الدينية الزاهدة في الدنيا لكن هناك عوامل نفسية جعلت أبا العلاء يزيد في ذم الدنيا و هي ترجع إلى الحالة النفسية التي عرف بها؛ كما أنّ لظروف العيش تأثيرا كبيرا على نظرة الانسان حتى قال رسول الله صلى الله عليه و آله :«كاد الفقر أن يكون كفرا»[23]. إنّ للعوامل التراثية و الدينية و الاجتماعية أثراً كبيراً في نظرة أبي العلاء تجاه الدنيا.

هذا ما نجده بوضوح في شعر أبي القاسم و نشعر بالألم و المعاناة و الغربة التي تلفُّهُ و تحيط به و هو ينفثها لينفِّسَ عن نفسه:

يا ربة الشعر و الأحلام غنّيني فقد سئمت وجومَ الكون من حينِ

إنّ الليالي اللواتي ضمخت كبدي بالسحر أضحت مع الأيام ترميني

ناخت بنفسي مآسيها، و ما وجدت قلبا عطوفا يسليها فعزّيني

و هدّ من خلدي نوح ترجّعُهُ بلوى الحياة، و أحزان المساكين[24]

إنه يرى الدنيا هبابا ويشعر بغربة و همٍّ لا يمكن الهروب منهما:

مالي تعذّبني الحياةُ كأنني خلقٌ غريب
و تهد من قلبي الجميل فهل لقلبي من ذنوب
وإذا سألت «لم الوجود و كله هم مذيب»
قالت: نواميس السماء قضت وما لك من هروبِ[25]

و الناس بين ذلك مشغولين بالدنيا و أموالها كأنهم يحاربونها لكنها لا تنثني عن حرب آمالهم بكل بلاء وهي كالبحر ترفع أمواجها بالأخطار و البلايا و هي كما يقول الإمام علي (عليه السلام): «مثل الدنيا كمثل الحية ليّن مسّها، و السم الناقع في جوفها، يهوي إليها الغِرُّ الجاهل، و يحذرها ذواللب العاقل»[26] و هذا ما يقوله الشابي بمختلف التعابير و الكلمات إذ يقول مثلا:

و نسوك من دنياهم حتى كأن لم يعرفوك
شغلتهم عنك الحياةُ، و حرب هذي الكائناتِ
إنّ الحياةَ و قد قضيت قبيل معرفة الحياة
بحر، قرارتُهُ الردى، و نشيد لجته شكاةِ
و على شواطئه القلوب تئنُّ، دامية عراة
بحر، تجيش به العواصف في العشية و الغداةِ
و تظلّه سحبُ الظلام، فلا سكون و لا إياة
نسيتك أمواج البحيرة، و النجوم اللامعةِ[27]

لكن هناك فرق بين نظرة أبي العلاء و أبي القاسم الشابي من حيث المبادئ و الأصول الفكرية و من حيث التعبير. فأبو العلاء يركّز على ذم الدنيا و سوء حالها لكن الشابي يعتمد على أسّس فنية في الأدب إذ صوّر في أكثر الأحيان مشاعره و اغترابه تجاه الدنيا و قد ذمها، لكن ليس لنفسها بل لما فيها من الغربة و من السأم و الحالات النفسية الأخرى التي تحصل له و هذه هي من أهمّ أصول المذهب الرومانسي الذي ينتسب إليه الشابي. ليس للنظرة الدينية تأثيرٌ واضحٌ على نظرة الشابي للحياة الدنيا فالأفكار و التعابير كلّها رومانسية تحكي لنا غربتهم و هجرتهم من المجتمعات و من الناس فإنّ هذا النوع من الهروب و الرفض للدنيا لا يشبه كثيرا التراث الأدبي القديم.

النظرة إلى السياسة

إنّ السياسة هي من أخطر الموضوعات التي شغلت بال رجال الدولة، و هي لا تخرج عن النظرة إلى الناس و الحياة و ما يمت إليهما بصلة. إنّ الساسة و الحكام في شعر أبي العلاء المعري و أبي القاسم الشابي من أمكر الناس و أفسدهم لأنه كما قلنا أنّ الظروف السياسية لكل من هذين

الشاعرين لا تخلو من الشبهة فكلاهما كان يعيش في ظروف سياسية سيئة كان فيها للحكام ما يشاؤون من النعم و الطيبات و الشعب يرزح تحت اعباء الفقر و يعاني شظف الحياة.

إنّ أبا العلاء المعري كان ينظر إلى السياسة من منظار عامة الناس فهو لا ينظِّر في السياسة و لا يأتي بآراء جديدة، لكنه ينتقد ظلم الولاة و الحكام و إسرافهم في نهب ثروات الشعب، و اهمال شؤون البلاد و مثل هذه الأمور ممّا قد لا تخفى عن أبسط أفراد الشعب. و لهذا نرى أنّ أبا العلاء يبغض الولاة و من لفّ لفّهم أشدّ البغض لأنّهم كانوا يتربّعون على العرش بالقوة و الخداع و كانوا لا يهتمّون بشؤون الشعب و يعاملونه معاملة سيئة[28]. إنّ الحكام في رأيه جماعة فوضى و رذيلة يتّبعون هواهم و يسوسون الرعيةَ ظلماً، و القضاة كذلك من جماعة فسادهم[29].

يسوسون الأمور بغير عقلٍ فينفذ أمرهم و يقال ساسَه
فأفٍ من الحياة و اف مني و من زمن رئاسته خساسَه[30]

إنّ أبا العلاء صاحب الكلمة الجريئة في نقد الحكام و الساسة لفساد أمور البلاد بسبب ضعف الخلافة العباسية و تجزئة الخلافة إلى دول و امارات ممّا قد أثّر في إضعاف الدولة المركزية و ساعد على انتشار الفساد في أمورها على نطاق واسع:

مُلِّ المقامُ فكم اعاشر أمّة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية و استجازوا كيدها فعدوا مصالحها و هم اجراؤها[31]

و كذلك يذمّهم لأنّهم يرهقون الشعب بضرائب فادحة، دون أن يؤدّوا بها أي نفع له أو مصلحة مما يجعل الشعب يعمل لصالح فئة خاصة في القصور كانت تتنعّم بالثروات و الشهوات، و تزدادُ كل يوم غناءً و يجعل الشعب يعاني من أجل لقمة عيش:

وجدتُ الناس في هرج و مرجٍ غواةً بين معتزلٍ و مرجى
فشأن ملوكهم عزفٌ و نزفٌ و أصحاب الأمور جباة خرجِ
و همُّ زعيمهم إنهاب مالٍ حرام النهب، أو إجلالُ فرجِ[32]

و علينا أن لا نستخفَّ بآراء أبي العلاء السياسية فأبو العلاء يعمل كوسيلة اعلام يبثّ في شعره الحقوق المتبادلة للشعب و الحكومة في عهد لم يكن الشعب يعلم كلَّ حقوقه و يجهل نسبيّاً فساد ولاته و ظلمهم و سوء إدارتهم. كما انه كانت آنذاك رؤى مختلفة حول الحكومة و الخلافة فبعضهم كان يراها محصورة في قريش و الآخر كان يراها موروثة و يجعلها مرتبطة بالله البارئ و قدره و غير ذلك من الأمور؛ فهذه النظرة إلى الحكّام و سياستهم يرجع إلى فساد الدويلات و امرائها أثر ضعف الدولة المركزية مما أدّى إلى ظهور المكر و النفاق و اهمال مصير الشعب و حرمانه من أبسط حقوقه بل و سلب أمواله و قوته[33]. إنّ أهمّ مصدر لآراء أبي العلاء

هذه، هي الأوضاع الاجتماعية آنذاك، اضافة على نوع نظرته إلى الطبيعة البشرية التي تقدّم ذكرها.

و ممّا لا ريب فيه انّ أبا القاسم الشابي هو أكثر جرأة في مهاجمة الحكام و الطغاة. إننا من خلال قراءة أشعاره السياسية نستطيع أن نشعر بعمق انفعاله مع هذه الموضوعات التي ترتبط مباشرة بالحكام و الشعب. إنّه ذو قلب دام و جريح تسوؤه تصرفات الحكام الطغاة و عدم مبالاة الناس بمصير بلدهم:

ألا أيّها الظالم المستبدُّ حبيب الظلام عدو الحياه
سخرت بأنات شعب ضعيف و كفُّك مخضوبة من دماه[34]

إنّه يرى- كأبي العلاء- أنّ حقيقة القصور و الحكّام قائمة على الكيد و النهب و الخداع و لهذا يبغض الحكام والقصور كما يبغضها أبو العلاء. إنّ الشابي يصرّح بقصائده بهذا الكره و البغض و منهما قصيدته «الحكام الطغاة» التي يقول فيها:

كرهتُ القصور، و قطانها، و ما حولها من صراع عنيف
و كيد الضعيف لسعي القوي، و عصف القوي بجهد الضعيف
و جاشت بنفسي دموع الحياة و عجّت بقلبي رياح الصروف
و القلب الفقير الحطيم الكسير، و دمع الأيامي السفيح الذريف[35]

إنّ الشابي يقفُ دائما إلى جانب الشعب و الضعفاء و يعيشُ معاناة الشعب و ينتقد الظلم بصراحة و جرأة، و يأنّ مع الشعب لما مني به:

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه و المجد و الإثراء للأغرابِ
و الشعب معصوب الجفون مقسم كالشاة بين الذئب و القصّابِ[36]

لكن الأمل يلوح دائما في قصائد الشابي و هو يصرّحُ في شعره بأن الفضيلة تنتصر و العاقبة للمتقين و لذلك نراه يتوعّد الحكام الطغاة كثيرا في شعره كما جاء في ما يلي:

لك الويلُ يا صرح المظالم من غدٍ إذا نهض المستضعفون و صمموا
إذا حطم المستبعدون قيودهم و صبوا حميم السخط أيان تعلمُ[37]

إنّ تفكير الشابي عجيب فيما يخصُّ علاقة الحاكم بالشعب؛ فهو لا يؤاخذ الحاكم الطاغي وحده بل يريد من الناس أن يهبّوا بوجهه و يصلحوا أنفسهم حتّى يصلح الحاكم. فعلينا أن نترك الضعف و الوهن ونكون أقوياء:

إنّ الحياة صراع فيها الضعيف يداس
ما فاز في ماضغيها إلّا شديد المراس[38]

إنّ القوي لا يُنصِفُ الضعيفَ إلّا إذا خاف من وعيه و تصلبه في الحصول على حقوقه. الشابي يرى هذا اللؤم فى النفس البشرية فهي لا تخضع إلّا لمن يقف قويا في وجهها و إلّا فلا تحترمه و لا تقدّر له ثمنا. و يتكلّمُ بلهجة تبعث على الاطمئنان و تدل على نفسية حساسة و خلفية ثقافية عظيمة.

ضعف العزيمة لحد في سكينته تقضي الحياة بناهُ الياس و الوجلُ
و في العزيمة قوات مسخّرة يخرّ دون مداها الشامخ الجبلُ
و الناس شخصان ذا سعي به قدم من القنوط و ذا يسعى به الأملُ
هذا إلى الموت و الأجداث ساخرة و ذا إلى المجد و الدنيا له خولُ[39]

فأبو القاسم الشابي لا يذمُّ الطغاةُ فحسب إنما يرى الأمر فى يد الشعب لأنّ القوة تكون أحياناً مصدر الفساد إن لم تجد من يتصدّى لها و يقف في وجهها، و الشعب هو من يستطيع أن يردع الظالم و يُوقِفه عن غيّه. فهو يعالج السياسة بروح ثورية تأبى الذل و الهوان و تريد للقوى أن تتعادل. و هو يعيش معاناة الشعب و يتألّم مع الناس لكن هذا لا يمنعه من أن يذمّ شعبه إذ لم يجد فيه حراكا و لا حياة كما ذكرنا قبل هذا.

على الرغم من التقارب الكبير بين تفكير المعري و الشابي في هذه القضية في انتقاد ظلم و اهمال الحكّام للشعب و بغضهما لمن حولها الملوك، إلّا أن هناك فرقا كبيرا بينهما، فنظرة المعري سياسية و اجتماعية لكن نظرة الشابي على الرغم من استنادها للاجتماع و السياسة لا تهمل الجانب الديني . إنّه يتوعد الظالم بالهلاك و يطلب كسر الحواجز و الثورة في وجه الطاغي و لذاك يدعو للعزيمة التي فيها الحياة و في تركها تذوق الموت و أنت حيّ.

إنّ اللغة التعبيرية عند الشابي جديدة أيضا توحي بنوع جديد من التفكير ملؤه احساس و عزم فلم يعد الحاكم ظالما و سيئا فقط كما عند أبي العلاء بل إنّه عدو الحياة، و عدم الاغترار بالربيع و غير ذلك من الأمور.

النظرة إلى الدين

إنّ قضية الدين هي أيضا من القضايا التي اهتم بها أبو العلاء المعري و كذلك أبو القاسم الشابي لكن هناك بعض الاختلافات و بعض الاشتراكات في نظرتهما الدينيه فإنّ آراء أبي العلاء في الدين تتذبذب بين محاور عديدة فنراه بعض الأحيان يهاجم الدين و يراه من صنع أناس ماكرين و الإنسان العاقل لا يأخذ بشيء منها ويقول:

اثنانِ أهل الأرض ذوعقل بلا دين و آخر ديّنٌ لا عقل له[40]

و لكن ممّا تجدر الاشارة إليه أنّ أبا العلاء رجل مؤمن و نستطيع أن نرى الايمان جليا في معظم شعره و هو و إن أدلى بمثل هذه الآراء فهي أولا من الواجب أن ننظر إليها في سياقها و

في النسق العام للقصيده و ثانيا يجب أن ندرك حقيقة الايمان و الهدى، فالايمان و الهدى كما يصرّح بذلك القران الكريم، قابلان للازدياد و النقصان و ليسا سيراً دون تذبذب «وزدناهم هدى»[41]. إنّ حقيقة الايمان و الهدى هى الإستمرار و الجهاد الدائم.

إنّ جل آراء أبي العلاء في الدين تُوجَّهُ ضدّ علماء الدين و ليس للدين نفسه فهو ينتقد العلماء الذين يتظاهرون بالتقوى حتى ينالوا بذلك نصيبا من الدنيا، وإن هؤلاء يفسدون المجتمع أكثر من الساسة[42] لأنهم منافقون لا تستطيع أن تعرف حقيقتهم كما أنهم يفسدون أمر الشعب بتظاهرهم:

نادت على الدين في الآفاق طائفةً يا قوم من يشترى دينا بدينارِ
جنوا كبائر آثام و قد زعموا أنّ الصغائر تجني الخلد في النارِ[43]

إنّ الكثير من الباحثين يتّهمون أبا العلاء بالكفر و ضعف الايمان لما يرون في بعض آرائه الدينية من خروج عن التفكير الديني، لكن هذه الأفكار الدينية عند أبي العلاء لها جذور اجتماعية و سياسية، و ذلك أنّه يؤمن بوحدانية الله أشد الايمان لكنه لا يرى الاعتقاد بالتسليم بل بالتفكير[44] و يكره التقليد و الانصياع دون تفكير للمسائل المهمة و المصيرية في الحياة و لهذا يقول:

في كل أمرك تقليد رضيتَ به حتى مقالك ربي واحد أحدُ
و قد أمرنا بفكر في بدائعه و إن تفكّر فيه معشر لحدوا
و أهل كل جدال يمسكون به إذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا[45]

يقول طه حسين الذي كتب أكثر من بحث عن أبي العلاء المعري و يعلّق على كلامه في الغايات و الفصول حيث يقول إنّه يؤلّف هذا الكتاب بغية مرضات الله «و أبو العلاء صادق فيما يقول فإنه ألّف الكلم يبتغي بها رضا الله و يتقي سخطه و لكن أبا العلاء يعبد الله و يتقرّب إليه كما يريد هو و يختار لا كما يريد الناس و يختارون»[46] ويقول العقاد كلاما عن المعري يدلّ على نوع تفكيره الديني أيضا إذ يقول: «إنّ شيمة واحدة في حكيم المعرة أخالها لو تغيّرت قليلا لتغيّرت فلسفته من الألف إلى الياء و هى السمت و الوقار»[47].

إنّ حقيقة الايمان تتجلّى بأكمل و انصع شكلها في شعر أبي القاسم الشابي لكنه يهاجم كأبي العلاء المعري علماء الدين لضعفهم و غفلتهم و لقلة ايمانهم و لتشبثهم بالقديم الذي لا يستحق التعصب و اهمالهم الحياة الجديدة التي لا تصطدم مع روح الدين بل لخوفهم من الجديد:

فقد فتّ في زند الديانة معشرٌ أثاروا على الإسلام من قد يهاجمُ
فوا الحق، ما هذي الزوايا و أهلها سوى مصنعٍ فيه تُصاغُ السخائمُ

لحى اللهُ من لم تستثرهُ حميةٌ على دينه، إن داهمتهُ العظائمُ
لحى الله قوما لم يبالوا بأسهم يصوّبها نحو الديانة ظالمُ[48]

ويحذّر الناس بلهجة صريحة و عاطفة قوية أن لا يبقوا ألعوبة بيد مثل هؤلاء العلماء و مثل أشباههم من الأدباء و الشعراء و المداحين الواقفين على أبواب الملوك. على الشعب أن يحيي على بيّنة من أمره فلا يخدع بكلام المتظاهرين و المنافقين و ضعيفي العقول الذين لا يعرفون حقيقة الدين فيتمسكون بظاهره دون أن يفهموا روحه فيتكلمون بما يضرُّ مصير الشعب باسم الدين و يحولون بين الشعب و الحياة الكريمة بإشاعة روح الاستسلام و القبول بالتقدير دون أن يعوا حقيقة القضاء والقدر:

الشاعر الموهوب يهرق فنه هدرا على الاقدام والاعتاب
و يعيش في كون عقيم ميت قد شيّدته غباوة الاحقاب
و العالم النحرير ينفق عمره في فهم ألفاظ ودرسِ كتاب
يحيا على رمم القديم المجتوى كالدود في حمم الرماد الخابي
و الشعب بينهما قطيع ضائع دنياه دنيا مأكلٍ و شرابِ
الويل للحساس في دنياهم ماذا يلاقي من أسى وعذاب[49]

لا ينبغي أن نفسّر مثل هذه الأقوال حسب الاتجاهات الفنية التي ينتسب إليها الشابي فالتمرد المتافيزيقي الذي عُرِفَت به الرومانسية[50] لم ينطبق على الشابي و ما عرف به من الالتزام و التديّن بل و لا ينطبق على غيره من الرومانسيين العرب. إنّ الشابي كالمعري يريد الالتزام من الناس و العلماء. إنّه لا يهاجم الدين بل يهاجم الذين يدّعون الدين وحمايته، لكنهم يجاهرون بالسوء، ويصطفّون إلى جانب الطغاة ضد الشعب كما يحاولون أن يبرّروا أفعالهم بأفكار قد نجد جذورها في يومنا هذا لدى الفرق الدينية التي تدعو إلى الاستسلام للقدر و تقول إنّ الحاكم ظل الله في الأرض فلا يجوز الخروج عليه و محاربته أو تتخذ من عدم السماح بنزيف دم الشعب ذريعة لتبرير قصر نظرهم إلى الشريعة السمحاء، و هذا هو الذي يؤذي الشابي و يجعله يتّخذ موقفا مضادا من علماء الدين الجاهلين لروح الشريعة و ليس كلهم كما نفهم من كلماته التي تختص بالذكر العالم النحرير الذي يترك مجتمعه بلا هداية فيعكف على قراءة بعض الكتب التي قد لا تنفعه أبدا لغلبة الجهل و الاهمال عليه. إنّ دعوة الشابي دينية و اجتماعية في الوقت نفسه ترنو إلى تثقيف الشعب و الوقوف بوجه الظلم.

الخاتمة

إنّ معظم آراء أبي العلاء المعري و أبي القاسم الشابي متشابهة في نظرتها إلى الحياة و السياسة و المجتمع و الدين، و هو الأمر الذي يدلُّ دلالةً واضحةً على تأثّر أبي القاسم الشابي بأبي العلاء المعري الذي أولى اهتماماً بالغا بمعانيه الشعريّة التي جاءت حصيلة فكره المتشائم. فكلاهما يتشاءمان بصلاح الناس و عدم هدايتهم، و يريان فساد الأمّة من فساد ساستها، و فساد علمائها و يذمّان الدنيا و الدهر. إنّ الفارق الزمني الكبير بين عصريهما يجعلنا نبحث عن أسباب تجعل نظرة هذين الشاعرين متقاربة هكذا و هذا ما تفسّره العوامل النفسية و البيئية و الدينية و التراثية و الفنية. إنّ أبي العلاء في كثير من آرائه منقاد تحت عوامل نفسية بسبب فقدانه لبصره في طفولته لكنه مع ذلك متأثر في تفكيره بالدين و أوضاع مجتمعه المتفكك و المنجرف في الفساد آنذاك. هذه العوامل قد أثّرت على أبي القاسم الشابي بصورة أو أخرى فاحتلال بلده على يد الفرنسيين و غفلة رجال الدين عن دورهم في هذه القضية و غيرها من القضايا الاجتماعية الأخرى جعلته ينظر من منظار خاص إلى الناس و الدين و السياسة و الحياة؛ كما إنّ هناك عامل فني لتفسير نظرة الشابي تجاه المجتمع و الحياة و غير ذلك من الأمور و هو انتمائه للمدرسة الرومانسية التي نستطيع أن نشاهد بوضوح تأثيرها في الأفكار و التعابير. رؤية أبي القاسم فيها شيء من التحدّي للقدر و القيود الاجتماعية غير العادلة. فهذه الرؤية تأتي من عناده و روح المقاومة المغروسة فيه. و يمكن لنا أن نعدّ موقف الشابي موقفا تنويريا يحث الأمة على النهوض، فمن هنا جاءت رومانسيته ثورية و تشاؤمه رثاء للخطأ الاجتماعي.

هوامش البحث:

[1]. ابن العديم الحلبي، الإنصاف و التحري في دفع الظلم و التجري عن أبي العلاء، دمشق، دار الجولان للطباعة، ط 1، 2007م، ص 17.

[2]. عمر فروخ، عقايد فلسفي أبو العلاء، ترجمة حسين خديوجم، طهران، سازمان كتابهای جيبی، 1384هـ.ش، ص 182.

[3]. أبو العلاء المعري، اللزوميات، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004م، 631-632.

[4]. المرجع نفسه، ص 49.

[5]. أبو العلاء المعري، سقط الزند، بيروت، دار صادر، 1957م، ص 197و198.

[6]. أبو العلاء المعري، اللزوميات، ص 620.

[7]. المرجع نفسه، ص 304.

[8]. أبو القاسم الشابي، الديوان، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004م، ص 204.

[9]. المرجع نفسه، ص 120.

[10]. المرجع نفسه، ص 88.

[11]. المرجع نفسه، ص 202.

[12]. المرجع نفسه، 55.

[13]. المرجع نفسه، صص 87 - 88.

[14]. عبدالله العلايلي، المعري ذلك المجهول، بيروت، دار الجديد، ط3، 1995م، ص 183.

[15]. عبدالرزاق الأصفر، المذاهب الأدبية لدى الغرب، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص 75؛ وليد قصاب، مذاهب الفن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2005م، ص 45.

[16]. محمود شكيب أنصاري، تطور الأدب العربي المعاصر، الأهواز، منشورات جامعة الشهيد شمران، 1390هـ.ش، ص 181؛ واصف أبو الشباب، القديم و الجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت، دار النهضة العربية، 1988م، ص 127.

[17]. أبو العلاء المعري، سقط الزند، ص 203.

[18]. المرجع نفسه، ص 25.

[19]. اللزوميات، ص 48.

[20]. المرجع نفسه، ص 219.

[21]. زهير بن أبي سلمى، ديوانه، شرحه عمر فاروق؛ بيروت، شركة دار الأرقم، ص 75.

[22]. سورة الحديد، آية20.

[23]. أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، طهران، دار الكتب الاسلامية، 1365هـ.ش، ج2 / ص 308.

[24]. أبو القاسم الشابي، الديوان، ص 183.

[25]. المرجع نفسه، ص 42.

[26]. صبحي صالح، نهج البلاغة، قم، دار الهجرة، ط2، 1422هـ.ق، الحكمة 119.

[27]. أبو القاسم الشابي، الديوان، صص 135-136.

[28]. عمر فروخ، عقايد فلسفي أبو العلاء، ص 158.

[29]. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، قم، ذوي القربى، ط3، 1385هـ.ش، ص 855.

[30]. أبو العلاء المعري، اللزوميات، ص 627.

[31]. المرجع نفسه، ص 54.

[32]. المرجع نفسه، ص 248.

[33]. عائشة عبدالرحمن، مع أبي العلاء في رحلة حياته، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1967م، صص 106 – 108؛ جعفر خريباني، أبو العلاء رهين المحبسين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م، ص 38.

[34]. أبو القاسم الشابي، الديوان، ص 188.

[35]. المرجع نفسه، ص 125.

[36]. المرجع نفسه، ص 58.

[37]. المرجع نفسه، ص 160.

[38]. المرجع نفسه، ص 113.

[39]. المرجع نفسه، ص 142.

[40]. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 856.

[41]. سورة الكهف، الآية 13.

[42]. عمر فروخ، عقايد فلسفي أبو العلاء، ص 162.

[43]. أبو العلاء المعري، اللزوميات، ص 510.

[44]. زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، 1957م، ص 306.

[45]. أبو العلاء المعري، اللزوميات، ص 298.

[46]. طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، القاهرة، دار المعارف، ط10، د.ت، ص 199.

[47]. العقاد، عباس محمود، رجعة أبي العلاء، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1967م، ص 26.

[48]. أبو القاسم الشابى، الديوان، ص 162.

[49]. المرجع نفسه، صص 56 – 57.

[50]. محمد غنيمي هلال، ا لرومانتيكية، القاهرة، دار النهضة، د.ت، ص 115.

المصادر و المراجع

- ابن أبي سلمى، زهير، ديوانه، شرحه عمر فاروق؛ بيروت، شركة دار الأرقم.
- أبو الشباب، واصف، القديم و الجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت، دار النهضة العربية، 1988م.
- الأصفر، عبدالرزاق، المذاهب الأدبية لدى الغرب، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1999م.
- الجيوسي، سلمى الخضراء، الاتجاهات و الحركات في الشعر العربي الحديث، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2001 م.
- حسين، طه، مع أبي العلاء في سجنه، القاهرة، دار المعارف، ط10، د.ت.
- الحلبي، ابن العديم، الإنصاف و التحري في دفع الظلم و التجري عن أبي العلاء، دمشق، دار الجولان للطباعة، ط 1، 2007م.
- خريباني، جعفر، أبو العلاء رهين المحبسين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م.
- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، 1957م.
- السامرائي، ابراهيم، مع المعري اللغوي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م.
- الشابى، أبو القاسم، الديوان، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004م.
-شكيب أنصاري، محمود، تطور الأدب العربي المعاصر، الأهواز، منشورات جامعة الشهيد شمران، 1390هـ.ش.
- صالح، صبحي، نهج البلاغة، قم، دار الهجرة، ط2، 1422هـ.ق.
- عبدالرحمن، عائشة، مع أبي العلاء في رحلة حياته، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1967م.

- العقاد، عباس محمود، رجعة أبي العلاء، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1967م.
- العلايلي، عبدالله، المعري ذلك المجهول، بيروت، دار الجديد، ط3، 1995م.
- غنيمي، محمد هلال، ا لرومانتيكية، القاهرة، دار النهضة، د.ت.
- الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، قم، ذوي القربى، ط3، 1385هـ.ش.
- فروخ، عمر، عقايد فلسفي أبو العلاء، ترجمة حسين خديوجم، طهران، سازمان كتابهاى جيبى، 1384هـ.ش.
- قصاب، وليد، مذاهب الفن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2005م.
-الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، أصول الكافي، طهران، دار الكتب الاسلامية، 1365هـ.ش.
- المعري، أبو العلاء، سقط الزند، بيروت، دار صادر، 1957م.
--------، اللزوميات، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004م.